عقيدة الأحناف التوحيدية و أفول المجتمع الجاهلي

قدوري عبد الكريم
جامعة مولاي الطاهر- سعيدة.

الحنيفية ظاهرة دينية لافتة لما تحمله من مميزات عن الاعتقاد الوثني الذي كان سائدا في الجزيرة العربية. فإذا كانت العرب قبل الإسلام تعرف اسم الله و تعدّه كبير الآلهة و خالق الخلق و تسمّت به أيضا، إلا أن الله كان قليل الذكر، و لا تلتفت إليه العرب كرب فاعل في العالم: الكون و المجتمع. و إنما جعلت له نوابا عنه أصناما و أوثانا و في أواخر القرن السادس ظهرت جماعة من العرب من يحسنون القراءة و الكتابة يدعون لتوحيد الله و الابتعاد عن عبادة الأصنام و شرب الخمر و الصوم و ممارسة الختان...الخ. و لم يكن هؤلاء لينالوا رضا غالبية العرب المعتقدين في الأوثان.

فما هي حقيقة هؤلاء الأحناف؟وما هي الظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بهذه الظاهرة؟ للإجابة عن ذلك، يتوجب علينا أولا تفحّص مدلول و أصل كلمة " حنيف ". من فعل حنف و هي من مال إلى الشيء فالحنيف هو من مال إلى التوحيد. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى ان اللفظة من أصل عبراني، هو: "تحينوتtchinoth "، أو من "حنفHnef "، ومعناه التحنث في العربية، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهّاد. وقال "نولدكه" انها من أصل عربي هو "تحنف"، على وزن تبرر، وهي من الكلمات التي لها معانٍ دينية. ويلاحظ ان السريان يطلقون لفظة "حنفهHanfa " "على الصابئة. وقد وردت لفظة "حنف" في النصوص العربية الجنوبية، وردت بمعنى "صبأ"، أي مال وتأثر بشيء ما.

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة اذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين.

و يرى جواد علي أن اللفظة "هي في الأصل بمعنى "صابئ" أي خارج عن ملة قوم، تارك لعبادتهم. ويؤيد رأيي هذا ما ذهب اليه علم اللغة، من أنها من الميل عن الشيء وتركه، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوبية. وبمعنى "الملحد"، و "المنافق"، و "الكافر" في لغة بني إرم، ومن اطلاق "المسعودي" و "ابن العبري" لهذه اللفظة على "الصابئة". ومن ذهاب "المسعودي" إلى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة. وقد اطلقت على "المنشقين" على عبادة قومهم الخارجين عليها، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه "الصابئ" و "الصباة"، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه، وخرج على الأصنام. ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادئ الأمر على نابذي عبادة الأصنام، وهم الذين دعاهم بأنهم على "دين ابراهيم". ولما كان التنكر للاصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً". [1]

الحنفاء إذن أناس ابتعدوا عن عبادة الأصنام و شرب الخمر و التزموا بالصيام على أن ما يشكلونه من ظاهرة هي اعتقادهم بوحدانية الله و البعث و الحشر ويوم القيامة و إن ذاع صيتهم في أواخر العصر الجاهلي و معاصرتهم للإسلام، فإن أصل هذه العقيدة يمتدّ إلى النصرانية البدائية ، بحيث أن تواجد المسيحية و اليهودية في ربوع الجزيرة لم يكن دون أن يخترق جدار الوثنية، و لكن توحيد هؤلاء أراد أن يأخذ له مسارا آخر دون الميل لأي من هاتين الديانتين و ذلك حسب ما يلاءم الواقع العربي آنذاك. فقد كان طبيعيا، خلال التعايش زمنا طويلا بين التصورات الوثنية و الأفكار اليهودية و المسيحية بشأن وجود العالم، أن يحدث التفاعل بين هذه و تلك و أن يشيع الجدل في مسائل البعث و القيامة و النبوة أيضا ... ثم أن ينتج هذا التفاعل الطويل الأمد اختماراته في ذاكرة الوعي ظهور فريق من الناس، في

مجتمع الجاهلية بموقف متميز ليس بوثني و لا يهودي و لا مسيحي"[2] و إن كانت هذه الفكرة صحيحة إلى أبعد الحدود حول التأثيرات اليهودية و المسيحية في وعي مجتمع ما قبل الإسلام بحكم تواجدهما القوي سياسيا و اجتماعيا كتلك الإمارة اليهودية التي قامت في اليمن و التواجد النصراني في نجران و شمال الجزيرة، فإن هذه المسيحية التي يتكلم عنها حسين مروة هي مسيحية التثليث الرسمية، وليست تلك التي تكلم عنها القرآن. و الظاهر حسب أحاديث النبي أيضا و مختلف أشكال الخطاب التي كانت متداولة آنذاك فإن نصرانية ذلك العصر هي المونوفيزية المعتقدة في إنسية المسيح و تعالي الله على العالم و التي تناقض في مجملها المسيحية البولسية[3] الداعية إلى التثليث "الآب الابن و الروح القدس و أم " ذلك من شأنه أن يجيب على نحو ن الأنحاء عن مسالة بروز المسيحية و النصرانية كلتيهما كتيارين و إن ربطت بينهما صلات كثيرة إلا أنهما متمايزان و القول:" من كلام الرواة(من أن) الحنفاء كانوا يرون تحريفا في الكتابين " لعله يفضي إلى القول الآخر بأن النصرانية هي التي اعتبرت المحرّفة لليهودية و للمسيحية و الخارجة عليهما في عدة مسائل، منها النبوة و الألوهة[4] . و بهذا تتضح هوية الحنفاء أكثر، فكما هو معروف فإن النصرانية ليست واحدة بل نصرانيات و المسيحية البولسية المسيطرة مذاك إلى اليوم ما هي إلا جنوح متأخر للحركة اليسوعية منذ ظهورها الأول فظهر في العهود الأولى ما يسمى بالمسيحية البدائية شيعا اكتشفت بعدما هيمنت المسيحية على يد بولس و النصارى نسبة إلى الناصرة مسقط رأس عيسى و الذين تسموا أيضا بالأبيونيين ebionites [5] وتعتبر إحدى الفرق المهرطقة المنبوذة من قبل الكنيسة الرسمية الدولانية البيزنطية و الرومانية مع الكسائية و الناصرية[6]، وهم من أتباع عيسى الذين رأوا في هذا الشخص مجرد شخص أرسله الله إلى البشر بدعوتهم إلى مبادئ جديدة كباقي الرسل ممن سبقوه نافين كونه إلهاً، مترهين الله من كل تجسّد وثني في أي شيء سواءً كان حيا أو جمادا.وانتشرت هذه الفرق في ربوع شمال الجزيرة، و خرجت بين الشريعة الموسوية اليهودية المعروفة و بين فكرة الخلاص التي

أتى بها عيسى و هي الفوز بالجنة و الحياة الخالدة للأبرار المؤمنين. و كانت بعيدة تعاليمها عن النصرانية العربية التابعة وهي النسطورية و المونوفيزية لكل من الغساسنة و المناذرة في شمال الجزيرة حليفتا الإمبراطورية البيزنطية و الفارسية.

و لم تكن مكة بمنأى عن التأثير النصراني. فالتبشير النصراني كان يمارس علنية في الأسواق و أيام الحج والملفت للنظر أن الكعبة المقدسة أقدم مبنى في مكة و التي جمعت كل أصنام العرب كان يوجد على أحد جدرانها رسما لإبراهيم و عيسى و مريم، إذ يقول الأزرقي في كتابه أخبار مكة أن النبي لما فتح مكة دخل الكعبة وفيها صور الملائكة و غيرها فرأى صورة ابراهيم (....) ثم رأى صورة مريم فوضع يده عليها و قال: "أمحوا ما فيها من صور إلا صورة مريم" [7] و يقول أيضا أن قريشا جعلت في الكعبة صورا فيها عيسى بن مريم و مريم عليهما السلام[8]. هذه إشارة ولو مقتضبة لتغلغل التوحيد إلى أقدس موضع عند عرب الجاهلية . إذن إذا كانت ميزة الجاهلية هي الشرك الوثني كما يعرفه جمهور المسلمين و ما يدافع عنه الدعاة و المؤدلجين من معتدل و متشدد فسؤالنا يبقى مطروحا لماذا جاءت هذه اللطخة التوحيدية لتعكّر صفو هذه الوثنية؟

الجواب ليس بالأمر السهل لأن مصادر معلوماتنا متقاربة حول هذه الظاهرة و هي ما وصلنا من إخباريين دونوا ما وصل إلينا عن هذا العصر أكثر من قرنين بعد ظهور الدعوة المحمدية. و ما هو موثوق به إلا القرآن و ما أتى في الأحاديث. ولكن لا يمنعنا ذلك عن طريق الفحص و التمحيص من إيجاد إجابة أقرب إلى الحقيقة التاريخية.

وحسب هذه المصادر فإن نشاط الحنفاء الدعوي بدأ في فترة ما قبل الإسلام بشكل ملفت و خاصة في مكة بالذات. لقد أصبحت مكة حينذاك في القرن السادس و مطلع السابع الميلادي أكبر مدينة في الحجاز على الإطلاق (أم القرى) حيث تطورت التجارة فيها لتصبح قطبا ذا جاذبية ثنائية فهي سوق كبرى تتبضع فيها كل القبائل العربية و كعبة تتركز فيها كل العاطفة الدينية للمقدّس العربي.

و يذهب محمود سيد القمني إلى أن رأس الأحناف هو عبدالمطلب بن عبد مناف جد النبي محمد (ص) هو الذي أكسب مكة كامل قدسيتها، بعد حفره بئر زمزم و طلى عبد المطلب أبواب الكعبة بالذهب، و أرجع نسب القبائل العربية كلها لإسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام ثم بدأ في نشر روح " الرهبنة" و قال أن دين ابراهيم الحنيف هو دين " الفطرة". و صعد إلى غار حراء في شهر رمضان من كل عام للتعبد و التأمل، و في يوم نزل من الغار و حرم على نفسه الخمر و نادى بمكارم الأخلاق و قال:" أن هناك ثوابا و عقابا، و جنة و نارا،و ان هناك حسابا و خلودا "[9] .التي كانت تؤمن بالتوحيد و سمّت الإله الأعلى " الرحمان"[10] و ظنهم من يذهب إلى أنها فرع من ديانة الصابئة و معروف أن الصابئة هم أتباع النبي يحيى أو "يوحنا، المعمدان" الذي عمّد عيسى عليه السلام. و كانوا يصلون عدة مرات في اليوم كفرض لا يجوز الاستغناء عنه فيقومون و يركعون في صلاتهم و يتوضئون قبلها، و يغتسلون من الجنابة، و لهم قواعد في نواقض الوضوء و ربما يفسر تشابه الطائفة في إجراءات دينهم مع المسلمين بعد البعثة النبوية، أن جعل أهل مكة يطلقون على من اتبع محمد (ص)...أنه صبأ[11]

وفي كلا الحالتين فعن التأثير التوحيدي اليهودي-النصراني حتى في شكله الصابئي كان جليا في توجه هذه الجماعة الفكري و العقيدي سواء كان من اليمن جنوب الجزيرة أو شمالها و شرقها أيضا فالصابئة كانوا يسكنون العراق و منهم من هم باقون على دينهم إلى يومنا هذا على ضفاف دجلة و الفرات بالعراق[12]. ولاشك في أن كلا الرأيين صائب فحضور التوحيد بكثافة في الجزيرة بشقيه المسيحي و اليهودي المنظم و تواجد فرق مهرطقة من هؤلاء و أولائك كان لابد أن يفضي إلى طريق وسط سوف تشقه مجموعات و أشخاصا منفردين كان همهم جر العرب إلى عقيدة توحيدية تتموقع في موقف التريب من هذه العقائد كلها مبتعدة عنها و رافضة للوثنية العربية آنذاك.

ويُذكر لهؤلاء الحنفاء أسماء عديدة على رأسهم القس بن ساعدة الإيادي، و زيد بن عمرو بن نفيل، و أمية بن أبي الصلت، و رباب بن رئاب، و سويد بن عامر المصطلقي، و أسعد بن كرب الحميري، و وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، و عمر بن جندب الجهني، و عدي بن زيد العبادي، و أبو قيس صرمة ابن أنس و سيف بن ذي يزن، وورقة بن نوفل القرشي، و عامر بن الظرب العدواني، و عبد الطابخة و عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، و علاف بن شهاب التميمي و المتلمس بن أمية الكناني، و زهير بن أبي سلمى و خالد بن سنان بن غيث العبسي، و عبد الله القضاحي، و عبيد ابن الأبرص الأسدي، و كعب بن لؤي بن غالب[13]

.

يضاف إلى هذه القائمة عثمان بن الحويرث و رئاب بن البراءالشتي و الراهب بحيرا[14] الذي بشر بنبوة محمد (ص) و كان يعيش في بصرى من أرض الشام في صومعة.

و لعل ما اشتهر به هؤلاء هو الشعر الذي خلفوه لنا، و الذي يتميز عن باقي الشعر الجاهلي في موضوعه الوحيد و هو التوحيد و الكلام عن مسائل لم يسبق لشعراء الجاهلية أن ذكروها في شعرهم.فتكلّموا في التوحيد و الله و الحنيفية و يوم الحساب و الحشر. فهذا زيد بن عمرو بن نفيل مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: " أيها الناس هلموا إلي فإني لم يبق على دين ابراهيم أحد غيري". و سُمع أمية بن أبي الصلت يوما ينشد:

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زورُ[15]، إذاً فلا دين عند الله إلا الحنيفية و لا قيمة عنده للأديان الأخرى، هذا عن بيان التزامه بدين الحنيفية و توكيده على وحدانية الله. و يسبق هذا البيت الذي رأينا عزله لغرض إثبات تحنف أمية و التزامه بتوحيد الله أبيات تبين معجزة خلق الله للكون فيقول:

إن آيات ربنا ثاقبات لا يماري فيهن إلا الكفور

خلق الليل و النهار فكل مستبين حسابه مقدور

ثم رجلوا النهار رب رحيم بمهاة شعاعها منشور

حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور

خلفوه ثم ابذعروا جميعا كلهم عظم ساقه مكسور(16)

و كان على اطلاع على التوراة. فيقدم حوارا شعريا بلسان موسى و هارون:

و أنت الذي من فضل و رحمة

بعثت إلى موسى رسولا مناديا

فقلت له: اذهب و هارون فادعوا

إلى الله فرعون الذي كان طاغيا.

و قولا له:أذنت سويت هذه

بلا و قد حتى اطمأنت كما هي.

و قولا له: أذنت رفعت هذه

بلا عمر، أرفق، إذا بك بانيا.

و في أبيات أخرى يبين لنا آيات الله في خلقه:

بناها وابتنى سبعا شدادا

بلا عمد يرين و لا حبال

سواها و زينها بنور

من الشمس المضيئة و الهلال.

و من شهب تلألأت في دجاها

مرا حين أشد من النضال.

لم يتوقف عند هذا الحد فرؤيته هذه التي يحملها لم تكن دون إذكاء دعوة النبوة فيه و هذه الأبيات تدل على ذلك:

باتت همومي تسري طوارقها أكف عيني و الدمع سابقها

مما أتاني من اليقين و لم أوت براة يقص ناطقها.

و بيت آخر يقول فيه:

ليتني كنت قبل ما قد بدالي لي فلال الجبال أرحى .

و يقول بن كثير أنه خرج إلى البحرين ثماني سنوات ثم عاد مع ظهور الدعوة المحمدية فطلب مقابلة النبي سائلا إياه بما أتاه من وحي فقرأ عليه هذا الأخير سورة ياسين فما عن فرغ منها و ثب أمية يجرّ رجليه فتبعه أهل قريش يقولون ما تقول يا أمية؟ قال أشهد أنه على حق[17]. و بعد الهجرة إلى المدينة ارتحل أمية إلى الشام و عند عودته بعد موقعة بدر أتى محمداً في المدينة فقال قائل يا أبا الصلت ما تريد قال أريد محمدا قال و ما تصنع قال أومن به و ألقي إليه مقاليد هذا الأمر قال أتدري ما في القلب قال فيه عتبة بن ربيعة و شيبتة بن ربيعة و هما ابنا خالك و أمه، ربيعة بنت عبد شمس و لما رأى قبرا ابني خاله سخط لذلك عائدا إلى مكة ثم الطائف و ترك الإسلام، وهنا سبقت النعرة و التعصب للقبيلة على الإيمان لما قُتل ابنا خاله من قبل جند النبي فترك الإسلام و هو على عتبة الالتحاق بالرعيل الأول من المسلمين. و لما سئل عنه النبي قال:" آمن شعره و كفر قلبه"[18] . و يقال أن القرآن لّمح في الآية على موقفه أعلاه: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ }الأعراف175

يتبـــــــــع...

1- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، الطبعة الثانية، جامعة بغداد، 1993، ص453

2- مروة حسين ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفرابي ، بيروت ، 1978، ص309

3- طيب تزيني ، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته الأولىحتى المرحلة المعاصرة: مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر نشأة و تأسيسا، دار دمشق للنشر و التوزيع و الطباعة، دمشق، الطبعة الأولى،1994 ص 292

4- نفس المرجع ، نفس الصفحة.

5-)Etienne Trocmé," Le christianisme des origines au concile de Nicée" inHistoire des religions. Encyclopedie de la pléiade, Gallimard, 1972, P234-235

6- عماد الصباغ، الأحناف، دراسة في الفكر التوحيدي المنطقة العربية قبل الإسلام، الطبعة الأولى، دار الحصاد للتوزيع و النشر، دمشق، 1998، ص95

7- الأزرقي، أخبار مكة، باب ما جاء في ذكر بناء قريش الكعبة في الجاهلية

8- نفس المرجع بنفس المعطيات السابقة

9- وليد طوغان، مدعوا النبوة في التاريخ الإسلامي، دراسة في استخدام السياسي للدين، دار الخيال، القاهرة–لندن،2004، ص 21.

10- جواد علي ، مرجع سابق ص453

11- وليد طوغان، مرجع سابق، ص 22

12- صلاح حسن" بحر بابل و أصول الطائفة المندائية" جريدة المؤتمر من 2–8 فبراير 2002

13- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، الطبعة الثانية، جامعة بغداد، 1993 ، ص463

14- محمد عابد الجابري حنفاء ... و حقيقة الحنيفية في الموقع

Coran 6 HT1 .Www. aljabiri . Net .07.01.12

15- محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، الطبعة الرابعة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994 ، ص 487 .

16- ابن هشام، السيرة النبوية، القسم الأول، الجزء الأول، دار الكتب المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص 60.

17- أبو الفداء الحافظ ابن كثير، البداية و النهاية، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، دار هجر للطباعة و النشر، القاهرة، 1997 ، ص288

18- نفس المرجعن ص288–289